القسم الأول

المبحث الأول : مفاهيم الإسلام حول الوجود والإنسان

إن النظرة إلى الكون ، وتحديد صلة هذا الكون بالكائن الحى وعلاقته بالوجود المادى المحيط به وببقية الكائنات ، تشكل فى مجموعها سلوك ومنهج الإنسان وفلسفته وعلاقته بالآخرين . كما أنها تحدد قوالب ونوعية نظمه الاجتماعية والاقتصادية . ومن هنا فان إعطاء فكرة سريعة عن مفهوم الاسلام تجاه الكون وتجاه الفرد وعلاقته كمخلوق ببقية هذه المخلوقات ، سوف يسهل على القارىء فهم فكرة الاسلام ومفهومه حول نظام الخدمة العامة وطبيعتها وما يتعلق بذلك من مباحث .

إن الإسلام يمتلك مفهوماً واضحاً ومحدداً لعلاقة كل من الانسان بالوجود الكلى ، فنظرة الاسلام حول الألوهية تقوم على قاعدة العبودية لله ؛ التى ترتكز بدورها على الايمان المطلق المتمثل فى التزام الفرد سلوكاً بموجب مقتضيات أوامر الله ونواهيه . ويتمثل مفهوم العبودية فى الركن الأول من أركان الاسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ التى بمقتضاها يلتزم الفرد المسلم فى المجتمع المسلم بالتصور الاعتقادى وبالشعائر التعبدية والشرائع القانونية التى سنها الله فى كتابه أو أمر بها رسوله ؛ فليس مسلماً حقاً ولا محققاً لمفهوم العبودية من لا يؤمن

بوحدانية الله . « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فاياى فارهبون . وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون » (٥١ — ٥٢ النحل) .

كما أنه ليس محققاً للعبودية من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله معه أو من دونه « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك لهوبذلك أمرتوأناأول المسلمين »(١٦٢-١٦٣الأنعام) . إن العبودية لا تكتمل فى مفهومها إلا بايمان الفرد بادراك أن مصدر التلقى فى كيفية هذه العبودية يأتى عن طريق رسول الله ؛ « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (٧ - الحشر) . ويعلق الشهيد سيد قطب رحمه الله حول هذا المفهوم فى كتابه (معالم فى الطريق)(١) فيقول : « التصور الاعتقادى الاسلامى هو التصور الذى ينشأ فى الادراك البشرى من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الربانى؛ والذى يكشف به الإنسان فى إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذى يعيش فيه — غيبه وشهوده — وحقيقة الحياة التى ينتسب إليها غيبها وشهودها ، ولحقيقة نفسه ولحقيقة الانسان ذاته . ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً ، تعامله مع ربه تعاملا تتمثل فيه عبوديته لله وحده ، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها ومع أفراد النوع البشرى وتشكيلاته » .

والتصور الإسلامى تجاه الوجود يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله حيث اتجهت إرادة الله إلى خلقه فكان بموجب النواميس والقوانين التى يتحرك بها والتى وضعها الله بتناسق تتحرك بها أجزاؤه فيما بينها كما تتناسق بها حركته الكلية ، كما أشارت إليها الآيتان « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٤٠ — النحل) وقوله « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » (٢ — الفرقان) .

وينتج عن هذا التصور إدراك أن وراء هذا الوجود مشيئة تديره وقدراً يحركه وقدرة تنسق ما بين أجزائه فتنظم حركاتها جميعاً فلا تصطدم ولا

١ — معالم فى الطريق — سيد قطب — دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع .

تختل ولا تتعارض ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة إلى ماشاء الله . فالوجود خاضع ومستسلم لهذه المشيئة التى تديره والقدر الذى يحركه، وتؤكد هذه المعانى الآية الكريمة « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » — (٥٤ — الأعراف) .

والإسلام يعتبر الإنسان جزءاً من هذا الوجود ، والقوانين التى تحكم فطرته ليست بمعزل عن تلك القوانين التى تحكم الوجود كله ، فالله قد خلق الإنسان كما خلق الوجود ، والإنسان مكون فى أصل مادته من طين هذه الأرض ،ويختلف عن مادة الطين بامتيازه بخصائص جعلت منه إنساناً مع خضوعه من ناحية كيانه الجسمى للقانون الطبيعى الذى سنه الله رضى بهذا القانون أم لم يرض ، فهو مثلا قد أعطى وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه ، فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنيناً ، كما أن مولده يخضع للقانون الذى وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة، كما يستفيد مما فى هذا الوجود من هواء يتنفسه بالقدر وبالكيفية التى أرادها الله له .

ونلاحظ هنا أن الإسلام يؤكد على فكرة التلازم ما بين القوانين والأنظمة وبين الوجود كله ، فالله الذى أخضع الكون لقانونه الذى أوجده بما فيه الإنسان، أوجد شريعة ونظاما لهذا الإنسان لتنظيم حياته الإرادية تنظيماً يتناسق مع حياته فوق هذه الأرض . فالشريعة وما تحتويه من نظم ما هى إلا جزء من القانون الإلهى العام الذى يحكم فطرة الإنسان والوجود العام وينسقها كلها فى إطار العبودية الواحدة لله . ويقول المرحوم سيد قطب فى هذا المعنى(٢) « إن الشريعة التى سنها الله لتنظيم حياة البشر هى من ثم شريعة كونية ، بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام ومتناسقة معه ، ومن ثم فان الالتزام بها ناشىء من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذى

---

٢ — معالم فى الطريق — سيد قطب — دار دمشق — للطباعة والنشر والتوزيع .

يعيش فيه ، بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التى تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التى تحكم حياتهم الظاهرة وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان » .

وقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود ، الذى ادعى حق السلطان كما وردت فى القرآن الكريم ، تشير إلى معنى التلازم بين الوجود كله « ألم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (٢٥٨ — البقرة) . والمنطق الذى استخدمه إبراهيم عليه السلام والذى هو منطق الإسلام يقوم على فكرة أن من يدعى حق السلطان على الفلك والأجرام فى الكون هو وحده الذى ينبغى أن يكون له السلطان على حياة البشر بما فى ذلك سلوكهم ، وأن السلطان على حياة الإنسان المعاشية لا يعطى الحق فى الاستعباد .

ولا شك أن أى تصور يمتلكه الفرد حول الوجود يؤثر على مفاهيمه حول العلائق الاجتماعية والاقتصادية . فالمجتمع الملحد الذى ينكر وجود الله أصلا ويرجع حركة الكون إلى المادة أو الطبيعة يؤثر ذلك فى نظرته إلى المؤثر فى حياة الإنسان وتاريخه ، ومن هنا تراه يرجع المؤثر إلى العوامل الاقتصادية وأدوات الإنتاج . كما أن النظام السياسى يتأثر بذلك فيجعل العبودية فيه للحزب على أساس أن القيادة الجماعية حقيقة واقعة مما يترتب على هذا التصور من إهدار لخصائص الإنسان كما فى النظام الشيوعى ، وذلك باعتبار أن الحاجات الأساسية للإنسان هى فقط مطالب الجسد : الطعام والملبس والمسكن والجنس . وحرمانه من حاجاته الروحية المتمثلة فى العقيدة بالله وحرية اختيارها وحرية التعبير عنها ، وكذلك حرية التعبير عن فرديته وهى من أخص خصائص إنسانيته التى تتجلى فى الملكية الفردية وفى اختيار نوع العمل والتخصص والتعبير عن الذات .

وحينما تلتبس مفاهيمه ويختلط الإلحاد بالعبودية للأشياء أو الأفراد كما فى النظام الرأسمالى الذى يعطى الفرد حريته المطلقة فيمتلك ما يشاء ويعمل ما يشاء فلا قيود على حركتـه فتبرز الأنانية والطبقية مما يؤثر على أنظمته الاجتماعية والسياسية ؛ وتاريخ أوربا منذ العصور الوسطى حتى العصر الحاضر شاهد على ما اقترف من جرائم فى حق الإنسان ودليل على مدى تأثير عدم تقييد حرية الفرد .

أما الإسلام فهو يحدد الغاية من الوجود ، وبالتالى يوجد التوازن بين الفرد والوجود باعتبار أن الفرد هو جزء من الكون ، ولذا نلاحظ فى كثير من الآيات القرآنيـة هذا الربط والإيحاء للفرد المسلم بذلك « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » (٧ ــ هود) « وما خلقت الجن الإنس إلا ليعبدون » (٥٦ ــ الذاريات) « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » » (٢ ــ الملك) .

ويوضح الأستاذ علال الفاسى هذا الترابط بقوله (٣) « لقد جعل سبحانه العبادة حكمة الإيجاد للإنسان ، ولكن العبادة لا تعنى الانقطاع عن العمل والتجرد عن الدنيا مما يتنافى مع رسالته فى تعمير الأرض ونشر الحكم الإلهى عليها طبقاً لنواميس الله ومقاصده الشرعية . والإنسان يكلف قبل كل شيء بأن يتعلم هذه النواميس والأحكام » .

والإسلام يجعل العلاقة بين الإنسان والله تقوم على فكرة الأزلية ، أى أزلية علاقة الإنسان بالله ، فمنذ أراد الله خلق الكون نادى فى الأزل فى أرواح البشرية كلها وعرض عليها أمانة التكليف والعبودية فاعترفت بألوهيته ووجوب عبادته ، ويحكى القرآن فى الآية الكريمة « ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (١٧٢ ــ الأعراف) ونتيجة لهذا الاعتراف منح الله الإنسان الأرض لتكون مقراً لخليفته عليها ، كما أوجد فيه

٣ – مقاصد الشريعة ومكارمها – علال الفاسى .

القدرة على عمارتها « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (٦١ – هود) « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم » (٣٠ – ٣١ – ٣٢ البقرة) .

إن النتيجة الحتمية لهذا التصور العام هى أن الإسلام يمتلك تصوراً مستقلاً للوجود والحياة ذا خصائص متميزة ينبثق عنه منهج ذاتى مستقل للحياة ونظمها ، فالمؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته ومفاهيمه من الناس ولكنه يستمدها من شريعة الله لتنظيم الحياة البشرية سواء ما يتعلق بأصول الاعتقاد أو أصول الحكم أو أصول الأخلاق أو أصول السلوك ، فمن نتائج هذا التصور أن الفرد المسلم لا يحتقر المادة فى أصلها النظرى على اعتبار أن الكون يتألف منها وهو يعيش فى هذا الكون الذى يتأثر به ويؤثر فيه كما هو حاصل فى الإنتاج المادى . فالإنتاج المادى من مقومات الخلافة عن الله فى الأرض ولكنه ، أى الإنتاج ، لا يعتبر هو القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ، ولذا فان الفرد المسلم يسعى إلى العمل على عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحيتها .

ويوضح هذا المعنى الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى كتابه (نظام الحياة فى الإسلام) (٤) : « نجد فى نظرة الإسلام للكون والإنسان أن القوة الوازعة التى لا بد لقانون الأخلاق أن يكون مستنداً إليها ، هى قوة خشية الرب تعالى والإشفاق من المسئولية الأخروية والخوف من سوء العاقبة فى المستقبل السرمدى ، ولا ريب أن الإسلام يريد أن يوجد ويهيىء من الهيئة الاجتماعية والرأى العام ما يحمل الأفراد والطبقات ويجبرهم على القيام بالقواعد الخلقية والدأب عليها » .

٤ – نظام الحياة فى الإسلام – أبو الأعلى المودودى – دار الفكر الإسلامى – دمشق ١٩٥٨ .

إن موظف الخدمة المدنية المسلم والملتزم بهذا التصور سوف يخلق لديه الالتزام الفكرى والانضباط السلوكى ، فهذا التصور سيكون الحارس على ضمان العدالة ونشر الحق وعدم الإخلال بحقوق الآخرين والمحافظة على حقوق الدولة بدون إضاعة حقوق الأفراد أو إضعافها .

المبحث الثانى : وظيفة الدولة فى الشريعة الإسلامية

تمهيد :

قبل التحدث عن وظيفة وطبيعة الدولة حسب النظرية الإسلامية وواجباتها ومسئولياتها لابد من تحديد مفهوم الدولة نفسه .

يقول ابن خلدون فى مقدمته حين تكلم عن رئاسة الدولة أنها تتنوع فى ثلاثة أشكال : إما ملك طبعى وهو حمل الكافة على مقتضى الفرض والشهوة . وإما ملك سياسى وهو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار. وإما خلافة وهى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى ، ومن هذه التقسيمات لطبيعة الدولة بوجه عام نلاحظ أن عناصر الدولة تتوافر فى هذه الأشكال والأنماط من الحكومة إلى شعب يخضع لنظام ويسكن رقعة من الأرض مع حتمية السلطة على هذا الشعب مع تأثر هذه السلطة بالمصدر التشريعى الذى تصدر عنه مهما تعددت التسميات التى تطلق على الدولة .

طبيعة الدولة فى الإسلام :

من مميزات الشريعة الإسلامية شمولها وتعدد الجوانب التى تعالجها فيما يتعلق بشئون الحياة ، والقارىء للقرآن والسنة يرى اتساع نطاق شمول الشريعة ، فهى تعالج أحكام العبادات والأخلاق والعقائد والمعاملات الحياتية سواء بين الأفراد أو الجماعات . وهذا الاتساع أدى إلى معالجة الإسلام لشئون الدولة ونظام الحكم فيها كمبدأ الشورى ومسئولية الحكام .